رابعاً: عروض ومراجعات

كتاب "الهدايات القرآنية": دراسة تأصيلية

عرض ومراجعة: أ. فؤاد بن عبده أبو الغيث

بيانات المسؤولية والنشر:

المؤلف: فريق بحثي مكون من: أ.د طه عابدين طه حمد، د. ياسين بن حافظ قاري، د. فخر الدين الزبير علي.

الناشر: كرسي الملك عبد الله بن عبد العزيز للقرآن الكريم بجامعة أم القرى، مكتبة المتنبي بالدمام.

رقم الطبعة وتاريخ النشر: الطبعة الأولى، ١٤٣٨هـ= ٢٠١٧م.

الوصف المادي للكتاب:

عدد المجلدات: ٢.

عدد الصفحات: ٩٥٠ص.

المقاس: ١٧× ٢٤سم.

نوع التغليف: تجليد فاخر.

هذا الكتاب دراسة تأصيلية للهدايات القرآنية، والقرآن الكريم كله هدى، كما قال الله تعالى عنه: ﴿هَذَا هُدًى﴾ [الجاثية: ١١]، وهذه الدراسة تجمع شتات ما كتبه العلماء السابقون في مفهوم الهدايات القرآنية وأهميتها وخصائصها، وأنواعها ومجالاتها وحال الناس معها، وأساليب القرآن الكريم في عرضها، ووسائله في ذلك، ومميزاتها، ومنهج السلف في التعامل معها، وطرق العلماء في الوصول إليها، والأصول والقواعد والضوابط في ذلك، وسبل تحقيق الهدايات القرآنية في واقع الأمة، وموانعه، وأثره.

وتعد هذه الدراسة مقدمة لموسوعة عالمية في الهدايات القرآنية؛ يسعى كرسي الملك عبد الله بن عبد العزيز للقرآن الكريم وعلومه بجامعة أم القرى إلى تحقيقها قريبًا بإذن الله تعالى.

وقد ذكرت الدراسة في المبحث الأول من الفصل الأول من فصولها الخمسة – التي يتكون كل فصل منها من ثلاثة مباحث– معنى الهداية في اللغة، ومعانيها في القرآن الكريم؛ فبيَّنت أن القرآن الكريم أضاف إلى معنى الهداية في اللغة، وهو: البيان، والمعرفة، والتعليم، والاستبصار، والدعوة، والسنة– أضاف إليها = معانٍ تكون من الله تعالى، وهي: الإلهام، والتوفيق، والثبات، والزيادة.

وخلصت الدراسة في بحث مفهوم الهدايات القرآنية إلى أن الهدايات القرآنية في الاصطلاح هي: الدلالة المبينة لإرشادات القرآن الكريم التي توصل لكل خير، وتمنع من كل شر. وفرَّقت بينها وبين تفسير القرآن بأن التفسير يبين معاني القرآن، بينما يهتم علم الهدايات بما يرشد إليه القرآن، ويدل عليه؛ فعلم التفسير أصل لعلم الهدايات، وبيَّنت أن علم الهدايات أعم من الاستنباط؛ لأنه يشمل الدلالات الظاهرة والخفية، بينما يختص الاستنباط بالمعاني الخفية والدقيقة التي تتضمنها آيات القرآن.

ووجدت الدراسة أن علماء التفسير يعبرون عن الهدايات بألفاظ متنوعة؛ تدور حول: الدلالة، والإرشاد، والفائدة، والبيان، والإشارة، والفهم، والأخذ، وألفاظ أخرى لم يكثر استعمالها.

وأظهر المبحث الثاني من الفصل الأول أهمية الهدايات القرآنية من حيث موضوعها الذي هو كلام رب العالمين، ومن حيث عظيم صفاتها؛ فهي: نور، وشفاء، ورحمة، ومن حيث هدفها الجليل المتمثل في إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وإرشادهم إلى ما يحقق سعادتهم في الدنيا والآخرة، ومن حيث شدة الحاجة إليها، لاسيما في عصر تعقدت مشكلاته النفسية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، وغيرها، ومن حيث أثرها البليغ؛ لأنها تبلغ كل كمال وسعادة، وتصون عن كل فساد وإساءة.

ووصف المبحث الثالث من الفصل الأول "خصائص الهدايات القرآنية"؛ فذكر أن الهدايات القرآنية ربانية المصدر والغاية، وأنها تمثل المقصد الأول للقرآن الكريم،

وأنها عامة وشاملة، وأنها كاملة وتامة، وأنها غاية في الوضوح واليسر، وأنها خالدة ومتجددة، وأنها في أعلى درجات المثالية والواقعية.

ثم قسمت الدراسة في المبحث الأول من الفصل الثاني الهدايات القرآنية إلى أربعة أنواع، وهي: الهداية العامة، ويطلق عليها بعض العلماء هداية الفطرة، والنوع الثاني: هداية البيان والدلالة، ويطلق عليها العلماء هداية التعليم، وهداية الإرشاد، وهداية الدعوة، وهي النوع الذي له تعلق بالعبد، والنوع الثالث: هداية التوفيق والإلهام، ويطلق عليها العلماء هداية التأييد، وتكون بجعل الهدى في القلب، ولا يقدر على هذا إلا الله تعالى، والنوع الرابع: الهداية في الآخرة، وهي ثمرة تحقق الهداية في الدنيا.

وفي المبحث الثاني من الفصل الثاني قسمت الدراسة مجالات الهدايات القرآنية إلى قسمين: مجالات متفق عليها، وهي أربعة: العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والآداب، والمعاملات، ومجالات مختلف فيها، وهي: المجالات العلمية؛ مجال العلوم الكونية، ومجال العلوم الإنسانية. وأكدت الدراسة أن أعظم مجالات الهدايات القرآنية وأنفعها مجال العقيدة؛ إذ بها صلاح الدين والدنيا والآخرة.

وخُتم الفصل الثاني بمبحث تقسيمي ثالث لحال الناس مع الهدايات القرآنية باعتبار الاستماع والتلاوة، وباعتبار التدبر، وباعتبار العلم والعمل به، وباعتبار التداوي والاستشفاء به.

وبيَّن الفصل الثالث في ثلاثة مباحث أساليب القرآن الكريم في عرض الهدايات، ووسائله في ذلك، ومميزاتها، وفرَّق بين الأساليب والوسائل بأن الأسلوب القرآني هو طريقة القرآن الكريم في اختيار الألفاظ، وتأليف الكلام، والدلالة على المعاني؛ فالأساليب هي القوالب التي تصاغ فيها المعاني، وتعرض بها الهدايات، أما الوسائل فهي الطرق التي جاء بها القرآن لتحقيق الهدايات، والتي متى سلكها الإنسان كانت سببًا في إيصاله إلى الهداية بأنواعها -بتوفيق الله تعالى-.

وقد بيَّن الفصل الثالث أن أساليب القرآن في عرض هداياته كثيرة، وذكر منها: الاستفهام، والتوكيد، والتكرار، والطباق، والمقابلة، والالتفات، والحوار، والأمثال، والأخبار، والقصص، وأسلوب التحدي والتعجيز، والترغيب والترهيب، والتقديم والتأخير.

وأشارت الدراسة كذلك إلى أن وسائل القرآن في عرض هداياته كثيرة، وذكرت منها: الاستدلالات العقلية، وإنكار التقليد والتحذير منه، والأمر بتدبر القرآن، والحث على العمل به، وبيان القدوات، والإشادة بهم، والأمر باتباعهم، والأمر بسؤال الهداية، والتذكير بأصل الخلقة مع الأمر بالتفكر في أصل الخلق وعظمته، والاتقان في صنعه، الإحكام في الدقيق في تسييره.

وبيَّنت الدراسة في المبحث الأخير من هذا الفصل أن أهم ما يميز أساليب القرآن في عرض الهدايات القرآنية ووسائله في ذلك: كمال الفصاحة التي تعلوها، وغاية البلاغة التي تكسوها، وصدقها، وتنوعها؛ فهي شاملة لجميع أنواع الأساليب البلاغية، والوسائل العقلية والوعظية والعلمية، ووضوحها لجميع من يفهم لغة العرب، ومخاطبتها للعقل والعاطفة معًا، ودقة اختيار ألفاظها، وعمق معانيها، والتناسب في ذلك كله.

ثم انتقلت الدراسة إلى ما يتعلق بالتعامل مع الهدايات القرآنية وبيان المنهج الأمثل في ذلك؛ فأوضحت في المبحث الأول من الفصل الرابع أن هدي السلف في التعامل مع هدايات القرآن يتمثل في: كثرة تلاوة القرآن والاهتمام بحفظه وإدامة النظر فيه وتدبره، والاهتمام بتعلم أحكامه ومعانيه، ومعرفة أحوال نزوله، واستحضار هداياته في مختلف المواقف، والعمل بها ظاهرًا وباطنًا، واجتناب المراء والجدل والاختلاف في القرآن، والبعد عن التكلف في التأويل والعمل.

وبيَّنت في المبحث الثاني من هذا الفصل "طرق العلماء في الوصول إلى الهدايات القرآنية"؛ فبيَّنت منها: الاعتماد على دلالات الألفاظ، والالتفات إلى تنوع

الأساليب، وتدبرها للوصول إلى الهدايات، والنظر في اختلاف القراءات، والتأمل في مجموع أدلة الكتاب والسنة، والصدور من أصول الشريعة، واستحضار حكم التشريع وأسراره، والنظر في أوجه الإعراب، وفهم الآيات من خلال أحوال النزول، والنظر في المناسبات، والتأمل في مواضع اقتران أسماء الله الحسنى، واستنباط مقاصد القرآن، والنظر في السياق، والاستفادة من آثار الصحابة والتابعين، والتدبر في قراءة النبي ﷺ في الصلوات وبعض الأحوال، والنظر في دلائل رسم المصحف، وربط الآيات بالواقع، وتأمل الآيات من خلال مكتشفات العلوم الكونية المطابقة لظواهر القرآن.

وختم الفصل الرابع بمبحث مهم في بيان أصول في التعامل مع هدايات القرآن، وقواعد، وضوابط في ذلك؛ باعتبار أن الأصول سابقة ذهنيًا للأحكام؛ فإن الأحكام تبنى عليها، أما القواعد فهي لاحقة للأحكام؛ لأنها عبارة عن جمع لأحكام جزئية تحت كلي يعمها، والأصول مأخوذة من دلالة الألفاظ واللغة والعقل والاستقراء، والقواعد مأخوذة من الأحكام والنصوص، أما الضوابط فهي كالقواعد في الفرق بينها وبين الأصول إلا أن الضوابط متعلقة بباب واحد؛ فبينما تنتظم القواعد أبوابًا مختلفة؛ ينظِم الضابط بابًا واحدًا؛ فمجاله أضيق من القاعدة.

فمن أصول التعامل مع هدايات القرآن الكريم التي بُيِّنت في هذا المبحث: أن معاني القرآن الكريم تجري مع الزمان والمكان والأحوال لا تتغير، وإنما يكون التغير في أحكامه الراجعة إلى العرف والعوائد، ومنها: أن كل كلمة في القرآن فهي لمعنى، وكل ترتيب وجد لحكمة.

وأما التعامل مع هدايات القرآن استخراجًا أو ترجيحًا عند التعارض بينها أو الاختلاف في القول بها فهو موضوع القواعد المذكورة في هذا المبحث، وهي قسمان: قواعد في استخراج الهدايات، وقواعد في التعامل مع الهدايات المستنبطة.

وقواعد استخراج الهدايات التي ذكرتها الدراسة، وشرحتها، وبيَّنت أدلتها، وتطبيقات العلماء لها؛ سبع، وهي:

القاعدة الأولى: تؤخذ الهداية من كل قراءة ثابتة عن النبي ﷺ.

القاعدة الثانية: ألفاظ القرآن مشتملة على جوامع المعاني.

القاعدة الثالثة: ينبغي حمل الآية على أوسع المعاني.

القاعدة الرابعة: ينبغي مراعاة دلالة التضمن والمطابقة والالتزام عند استخراج الهداية.

القاعدة الخامسة: حذف المتعلق يفيد العموم.

القاعدة السادسة: الأمر بالشيء يستلزم النهي عن ضده، والعكس...

القاعدة السابعة: إذا جاء سياق الكلام في أوله خاصًا، وجاء الحكم في آخره عامًا؛ دل ذلك على العموم.

وبالمنهج نفسه أوردت الدراسة سبع قواعد في التعامل مع الهدايات المستنبطة، وهي:

القاعدة الأولى: الهداية التي تؤيدها آية قرآنية أو حديث نبوي مقدمة على ما عدمت ذلك.

القاعدة الثانية: الهدايات التي نص عليها الصحابة والتابعون أولى مما نص عليه غيرهم.

القاعدة الثالثة: القول الذي تؤيده قرائن الترجيح مرجح على ما خالفه.

القاعدة الرابعة: القول بالتأسيس أولى من القول بالتأكيد.

القاعدة الخامسة: القول بالتباين أولى من القول بالترادف.

القاعدة السادسة: القول بالترتيب أولى من القول بالتقديم والتأخير.

القاعدة السابعة: المعنى الشرعي مقدَّم على المعنى اللغوي.

وأما الضوابط التي وضعها العلماء في التعامل مع الهدايات القرآنية فذكرت الدراسة من ذلك: التزام طرق الفهم الصحيح للقرآن الكريم، وعدم الخوض فيما

استأثر الله بعلمه، وعدم الخوض في هدى القرآن بغير علم، والالتزام بضوابط اللغة العربية في فهم المعنى، والالتزام بفهم المعنى وفق السياق الذي ورد فيه، وجمع الآيات في الموضوع الواحد وفهمها مجتمعة، والتجرد من الهوى.

وخُتِمت الدراسة ببيان سبل تحقيق الهدايات القرآنية، وموانعها، وأثر تحقيقها في واقع الأمة، وهذا في المباحث الثلاثة التي يتكون منها الفصل الخامس؛ فأشارت إلى أن سبل تحقيق الهدايات القرآنية كثيرة، وبيَّنت منها: الإيمان بالله، وتقواه، والاستجابة لأمره، ولرسوله ﷺ، واتباع هديه، وهدي أصحابه المرضيين، والدعاء بطلب الهداية والثبات عليها، والتوبة والإنابة إليه سبحانه، وتلاوة القرآن الكريم، وتدبره، والعلم والعمل به.

ولخص المبحث الثاني من الفصل الخامس "موانع تحقيق الهدايات القرآنية" في: الكفر، والظلم، والفسق، والخيانة، وحب الدنيا، وكراهية الموت، واتباع الهوى، والكذب، والكبر، والحسد. وقد أُفرد كل مانع من هذه الموانع في مطلب مستقل؛ جُمع فيه ما يتعلق به من نصوص القرآن والسنة، ودُرِست دراسة تفسيرية تحليلية؛ تبيَّنُ وجه كونه مانعًا من موانع الهداية.

ثم بيَّنت الدراسة في آخر مباحثها -وهو المبحث الثالث من الفصل الخامس- جملة من الآثار العظيمة المترتبة على تحقيق الهدايات القرآنية في واقع الأمة، وهي: قوام الأمة في جميع شؤونها، والعدل والإنصاف، والوحدة والاتفاق، والتمكين في الأرض، والأمن والطمأنينة، والسعادة الحقيقية.

لقد أظهرت هذه الدراسة علمًا يضاف إلى علوم القرآن، وحررت قواعده من بطون كتب التفسير وعلوم القرآن، وذكرت مبادئه، ورسمت ملامحه، وأبرزت معالمه، وتناولته من مختلف جوانبه.

وهي إضافة مهمة في المكتبة القرآنية؛ تفتح مجالاً واسعًا، وأفقًا رحبًا؛ للباحثين والمتخصصين في الدراسات القرآنية.

وقد يستدرك عليها ما تختلف فيه الأنظار، وتحتمله الأفهام، ومن ذلك:

١- أن تعريف الهدايات القرآنية فيه تطويل وتعقيد؛ فإنه يمكن أن يكتفى بأنها: "إرشادات القرآن التي توصل لكل خير، وتمنع من كل شر"، وقد ورد في شرح التعريف عند شرح كلمة الإرشادات: "أن الهدايات القرآنية في مصطلح الدراسة هي مجرد الإرشاد إلى الخير".

٢- لم يُذكر في تعريف الهدايات القرآنية في الاصطلاح كلام أهل العلم الذي يمكن أن يكون تعريفًا للهدايات القرآنية في الاصطلاح إلا قول ابن عاشور المذكور في حاشية الدراسة، وهو قوله: "الهداية في اصطلاح الشرع حين تسند إلى الله تعالى هي: الدلالة على ما يرضي الله من فعل الخير". ومن كلام أهل العلم الذي يمكن أن يؤخذ منه تعريف للهدايات القرآنية في الاصطلاح؛ قول ابن تيمية في كتاب النبوات (٢/ ٦٤١) في تفسير قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٩] : "ففي الهدى: بيان المعبود، وما يعبد به".

٣- في مطلب الفرق بين مفهوم هدايات القرآن الكريم والمصطلحات المقاربة؛ لم يُفرَّق بين مفهوم هدايات القرآن الكريم ومفهوم تدبر القرآن الكريم، ولم تُبيَّن العلاقة بينهما، مع أنها مبيَّنة في مواضع من الدراسة؛ ومن ذلك: ما ورد في الحديث عن هدي السلف في التعامل مع الهدايات القرآنية من أن: "تدبر القرآن الكريم، والتفكر في آياته؛ هو السبيل إلى استخراج هداياته؛ ومن ثم الاهتداء بها".

٤- ما ذُكر على أنه أنواع الهدايات القرآنية هي أنواع الهداية بالمعنى العام، وليس أنواع الهدايات القرآنية، ومن أوضح الأدلة على هذا: ما كُتِب تحت ما اعتُبِر النوع الرابع من أنواع الهدايات القرآنية، وهو: "الهداية في الآخرة".

٥- لم يُذْكر المعتبر في تقسيم أنواع الهدايات القرآنية، كما في تقسيم حال الناس مع الهدايات القرآنية.

٦- وقع في تقسيم حال الناس مع الهدايات القرآنية ما وقع في تقسيم أنواع الهدايات القرآنية؛ حيث جرى الحديث عن حال الناس مع الهدايات القرآنية باعتبار الاستماع والتلاوة، وباعتبار التداوي والاستشفاء، بما لا يختص بالهدايات القرآنية؛ فإن الاستماع والتلاوة والتداوي والاستشفاء تتعلق بالقرآن الكريم، وإن لم تُعْلم هدايات بعض آياته؛ ففعل ذلك؛ لا يختص بالهدايات، كما أوردت الدراسة عن بحث لبعض الأطباء النفسيين أن الاستماع إلى القرآن الكريم يحدث تغيرات فسيولوجية لا إرادية عديدة في الأجهزة العصبية؛ مما يؤدي إلى تخفيف درجة التوتر والشعور بالسكينة لدى المستمع، وإن لم يفهم معانيه، فالحديث عن حال الناس مع الهدايات القرآنية باعتبار الاستماع إليها وتلاوتها، وباعتبار التداوي والاستشفاء بها؛ كان عامًا شاملاً لفعل ذلك مع العلم بالهدايات، ولفعله بدون العلم بالهدايات؛ فإن ألغي فعل ذلك بدون العلم بالهدايات؛ فالحديث عن فعل ذلك مع العلم بالهدايات؛ يؤول إلى الحديث عن حال الناس مع الهدايات القرآنية باعتبار التدبر والعلم والعمل، وكأنه تُنُبِّه لذلك في خاتمة الدراسة؛ فلم تشتمل على نتيجةٍ تتعلق بتلك الاعتبارات العامة؛ فنتيجة هذا المبحث: "أن حال الناس مع الهدايات القرآنية انقسم في الجملة إلى قسمين: [معرضين] عنها، وهؤلاء هم الذين كفروا، وكذبوا بآيات الله، وصدفوا عنها، و[مقبلين] عليها، وهؤلاء هم الذين آمنوا بها، ولكنهم في اتباعها تفاوتت مراتبهم ودرجاتهم". وقد كُتبت كلمتا معرضين ومقبلين مرفوعتين؛ فكُتِبتا بالواو: "معرضون" و"مقبلون"، ويظهر أن هذا الإعراب على تقدير: فمنهم معرضون...ومنهم مقبلون، لكن الأظهر أن الكلمتين مجرورتان؛ فالأُولى (أي: معرضين) بدل من "قسمين" المجرورة بإلى، والثانية (أي: مقبلين) معطوفة على الأولى.

٧- وقع في الكتاب بعض الأخطاء الطباعيِّة، والفنِّية، وأظهرها: أن رقم صفحة عنوان الفصل الثاني (أ/ ١٣٤)، مع أنها على الشِمال، وإضافة حرف إلى رقم

الصفحة يدل على وقوع إضافة في الكتاب بعد الانتهاء من ترقيم صفحاته، ولم يُعَد ترقيمها؛ بحسب ما تقتضيه الإضافة؛ فيظهر أنه أضيفت صفحة إلى الكتاب بعد الانتهاء من ترقيم صفحاته دون إعادة ترقيم الصفحات ترقيمًا صحيحًا؛ بالأرقام وحدها.

ولعل من الأخطاء الطباعية كتابة "السابقين" في "كلمة الفريق البحثي": "قمنا بهذه الدراسة التأصيلية للهدايات القرآنية لجمع شتات ما كتبه العلماء السابقين"؛ فالصواب أن يكتب: ما كتبه العلماء السابقون...

٨- ومن الاستدراكات التي تندرج تحت المقالة المشهورة: "لا يكتب إنسان كتابًا في يومه إلا قال في غده: لو غُيِّر هذا؛ لكان أحسن، ولو زِيْد كذا؛ لكان يستحسن"= أنه لو غُيِّرت عبارة الضابط السابع من ضوابط التعامل مع الهدايات، وهي: أن يجرد المفسر نفسه من الهوى -لو غُيِّرت- إلى: أن يجرد الناظر في الهدايات القرآنية نفسه من الهوى؛ لكان أولى وأحسن؛ لأن الكلام عن ضوابط التعامل مع الهدايات، وليس عن ضوابط التفسير أو ضوابط المفسر.

٩- ولو زِيْد في الكتاب فهرس للهدايات القرآنية التي اشتمل عليها؛ لكان يستحسن؛ لأنه يُبْرِز الأمثلة التطبيقية التي توضح مقولات الدراسة التأصيلية النظرية، ويسهِّل الرجوع إليها والاستفادة منها لاحقًا.

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.